الأدب الإسلامي وتجديد الخطاب الديني

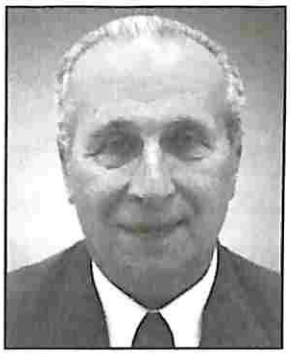

بقلم: د . سعد أبو الرضا

تجديد الخطاب الديني عبارة مراوغة ، من ثم فهي بحاجة إلى مناقشة تكشف جوانبها ، وتوضح كيفية التعامل السوي معها ، بما يدعم أصالتنا ، ولا يهدد شخصيتنا واستقلالها في عصر العولمة التي تحاول احتواءنا .. وابتلاع العالم كله ، كما نحاول أن نبين موقف الأدب الإسلامي من هذا التجديد ..

تتألف عبارة " تجديد الخطاب الديني " من ثلاث مفردات : أولها التجديد ، وهو أمر مطلوب ، بل إن الحياة لا تزدهر وتتقدم إلا به ، والتجديد مصدر للفعل جدّد ، والتضعيف في مادة الفعل يوحي بأن ذلك يتطلب مزيداً من الجهد والفاعلية حتى يتم هذا التجديد ، مما يكشف عن أهميته وضرورته .

أما الخطاب : فهو كل كلام تجاوز الجملة الواحدة منطوقاً أو مكتوباً ، لكن مثل هذا المصطلح ارتبط اليوم في ظل الحداثة بأن هناك دلالات للكلام غير ملفوظة ، يدركها المتحدث أو السامع ، وذلك يتعلق بفكرة المسكوت عنه في الكلام التي يعتمد عليها محللو النصوص ، عندما يستنتجون دلالات قد تتجاوز المنطوق أو المكتوب ، وهنا يمكن استنتاج سلطوية الخطاب أو هيمنته ، أو غير ذلك من الدلالات التي بشر بها فوكو وغيره من منظري أسس تحليل الخطاب .

أما الديني : فهو نسبة إلى الدين ، ومن معاني الدين الطاعة ، وبالنسبة للدين الإسلامي فقيمه مستمدة من القرآن الكريم ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدرجة الأولى ، ثم يلي ذلك الإجماع والقياس والاجتهاد ، وبرغم أن المصادر الأخيرة من أعمال البشر ، لكنها تقوم على أساس روح وسياق المصدرين الأولين وهما القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، واعتماداً عليهما ، ولذلك فقيم الدين الإسلامي من الثوابت .

ولعل المتابع للمؤتمرات الثقافية التي عقدت في عالمنا العربي تحت دعوة " تجديد الخطاب " يدرك مما أعلن من مناقشاتها ونتائجها إلى أي حد قد تجاوزت الثوابت بدعوى التجديد ، وكان من الأولى أن يكون عنوانها تجديد الخطاب الديني ، حتى يكون هناك وضوح في الطرح والتناول ، لكنها للأسف تدعو إلى تجديد خادع ، بعيد عن المرجو منها .

وثمة قضية خطيرة في هذا المجال ، عندما يصبح النص الديني : القرآن الكريم أو الحديث الشريف مجالاً للتأويل والتفسير المتجاوز للثوابت ، استجابة لفكرة المسكوت عنه في النص ، لأننا بذلك نتجاوز خصوصية هذه النصوص التي هي جوهر ديننا وكينونيتنا .

وحقاً يجب أن نعيد النظر في خطابنا للآخر بما يكشف عن عدالة موقفنا ، وسمو أهدافنا ، وشمولية ديننا للدنيا والآخرة ، وسماحة ثوابتنا ..

وبالنسبة إلى تأويل وتفسير النص الديني فيجب ألا يتصدى لهذه المهمة إلا القادرون المؤهلون لهذه المهمة عقديا وفكريا وعلميا، وأن يكون هناك تواصل علمي بين هؤلاء القادرين المؤهلين ، حتى نتجنب الشطط من ناحية ، والغلو المنهجي عنه من ناحية أخرى.

ولقد حاولت المناهج النقدية للحداثة وما بعد الحداثة أن تطلق العنان للقارئ لتفسير النص فرأت البنيوية وغيرها موت المؤلف، وأن لا شيء خارج النص ، كما اعتبرت التفكيكية كل قراءة إساءة قراءة، مما ينتهي إلى اللامعنى، لكن هذه التوجهات الحداثية تؤدي إلى فوضى التفس.

وإذا كانت قد حاولت كبح جماح المبدع بالنسبة للنص فقد أطلقت العنان للقارئ في تفسير النص ، وتحقيق المعنى، مما أدى إلى فوضى التفسير ، وذلك مما جعل نظرية نقدية أخرى هي نظرية التلقي تضع من الضوابط ما حاولت به كبح جماح القارئ فاعتدت بأفق هذا القارئ الذي تشكله ثقافته وبيئته وهو يواجه به النص، كما اعتبرت أفق هذا القارئ جزءا من أفق الجماعة المفسرة التي ينتمي إليها القارئ ، وذلك كوسيلة للتقريب بين مواجهات القراء للنص، لكن يظل إطلاق العنان للقارئ في مواجهة النص على هذا النحو سبيلا لفوضى التفسير والتأويل ، وهو ما يجب أن ينأى عنه أي خطاب بصفة عامة، والخطاب الديني بصفة خاصة ، ذلك الخطاب الذي تسهم في تشكيله الملابسات والظروف وكذلك علاقته بالمبدع والمتلقي.

إذن أين يكون التجديد ؟ إن التجديد واسع فسيح الأرجاء .. في فهمنا نحن ، وتصوراتنا نحن ، ورؤيتنا نحن تجاه هذه الثوابت ، ولنا أسوة حسنة في اختلاف الفقهاء الأئمة ابن حنبل وأبي حنيفة والشافعي ومالك ؛ مع الفارق الكبير والبون الشاسع بين توجهاتهم ، وما يمكن أن نقوم به نحن ، فهم برغم اختلافهم ، فقد كان اختلافهم رحمة ، ولم يخرجوا على هذه الثوابت ، ومن ثم فعدم الخروج على الثوابت يجب أن يكون سياجاً لخطابنا ، وألا نسمح للمسكوت عنه أن يتجاوز هذه الثوابت ، أو يتعارض معها ، مهما تعددت مجالات خطابنا الديني ، وتباينت توجهاته .

إن مجال الأحكام الشرعية ثوابت قد ضبطها الفقهاء الأئمة ، في ضوء مصادر التشريع الإسلامي ، ويبقى لنا مجال فسيح في العلاقات الاجتماعية ، والأخلاق ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وما يحقق مصلحة الأمة ، .. إلى غير ذلك ، من أصغر الأمور كإماطة الأذى عن الطريق ... إلى أعظمها وهو الجهاد .

هنا يأتي دور الأدب الإسلامي ونهجه في التعبير عن هموم الأمة وآمالها ، إذ يصبح من أنسب الوسائل التعبيرية للكشف عن تجديد الخطاب ، لأن الأدب الإسلامي يوظف الكلمة الجميلة المعبرة في التعبير عن قضايا الأمة مع استرفاده لملاحقة المتغيرات ، وكل هذا وفق التصور الإسلامي ، دون سلطوية أو هيمنة مزعومة .

وبذلك يلبي احتياجات الأمة ، ويشبع رغباتها ومتطلباتها في الخير والحق والعدل ، وهي تتعامل مع أمسها وحاضرها ومستقبلها . ■

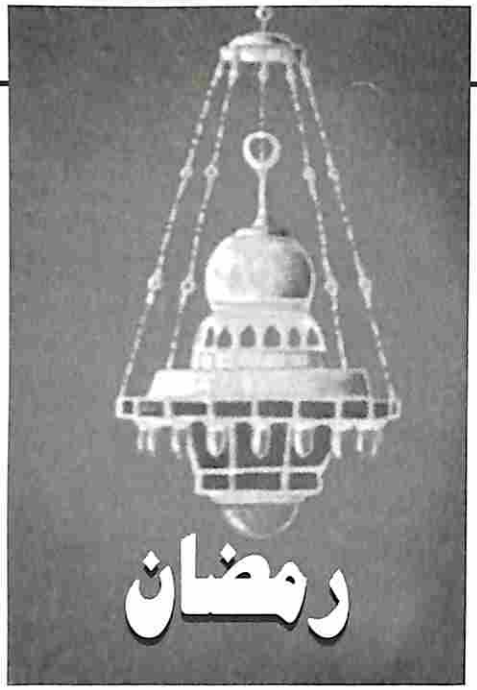

شعر: محمد عبد القادر الفقي
مصر

تعاطيتُ شهد الصوم، لم أخش لائماً
وكان غذائي الحمدَ في رمضانِ

وأسلمت وجهي للذي حبه الغنى
وحُبُّ سواه الفقرُ في الإيمانِ

يقول فؤادي: ليس من صام مفطراً
كمن ذاق تمر الوجد والإذعانِ

وما يستوي البحران: هذا أجاجه
معاصٍ، وهذا عنبُه رياني

فإن كنت في خير الشهور مجاهداً
فليس طريقُ العبد في الحرمانِ

ولكنها تقوى الحبيب وآية
تسير بها نوراً إلى الريانِ

وما الدنى للفتى غير لحظةٍ
هي الخوف من فطر على النيرانِ